مجلة العلوم العربية والإنسانية
جامعة القصيم، المجلد (١٥)، العدد (١)، ص ص ٣٠٩-٣٥٧، (محرم ١٤٤٣ هـ/ أغسطس ٢٠٢١)

مدينة عيذاب كما وصفها الجغرافيون العرب والمسلمون منذ القرن الثالث الهجري إلى القرن الثامن الهجري

د. سلطانة بنت ملاح الرويلي

أستاذ التاريخ والحضارة المشارك بقسم التاريخ والحضارة - كلية الشريعة والقانون بجامعة الجوف

ملخّص البحث:

تهدف هذه الدراسة إلى رسم صورة مدينة عيذاب الساحلية وحضورها كما وردت في مؤلفات الجغرافيين والرحالة العرب والمسلمين منذ أقدم النصوص الجغرافية في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي وحتى القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، والتعريف بصحرائها المشهورة "صحراء عيذاب".

كما عرفت الدراسة بسكان عيذاب وأصولهم، وطباعهم وديانتهم والوجود العربي في بلادهم، وكشفت عن أبرز مواردهم المعيشية والمالية وبخاصة الثروات المعدنية.

وعددت الدراسة الطرق البرية المسلوكة فيما بينها وبين صعيد مصر، والصعوبات التي واجهها المسافرون عليها، وما هي الأسباب التي قللت من أن تكون طريقاً مسلوكة لحجاج إفريقيا عبر البحر الأحمر نحو ميناء جدة والذي يختصر مسافة طويلة؟.

الكلمات المفتاحية : عيذاب، البجة، البحر الأحمر، الجغرافيون العرب.

مدخل:

تعرضت المصادر الجغرافية العربية لمدينة عيذاب ونواحيها، وقدمت معلومات قيمة عنها منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وعرفت بأمة البجة (أو: البجاة)، الذين تنسب المدينة لهم، وهي معلومات متفاوتة فيما بين الجغرافيين في قيمتها وأهميتها، وبعضهم نقل كلام المتقدمين حولها.

وقد توافرت لدينا معلومات مباشرة عن عيذاب ونواحيها والطرق الموصلة إليها من خلال العديد من الرحالة الذين زاروها: ناصر خسرو في سنة ٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م، وابن جبير سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م، والتجيبي الذي مر منها في سنة ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م، وابن بطوطة الذي زارها ثلاث مرات في السنوات ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م و٧٣٢هـ/ ١٣٣١م، و٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م.

الدراسات السابقة:

حظيت مدينة عيذاب باهتمام الباحثين والدارسين، وأعدوا حولها العديد من الدراسات المتنوعة في اتجاهاتها، وغلب على اهتمام الباحثين البحث في ميناء المدينة وبيان أهميته التجارية، فأعد كل من عبد الغني زيادة ونهى عبد العزيز دراسة أثرية حول ميناء عيذاب وأهميته التاريخية[١]، وتعرض عوض محمد وأحمد مركز في دراستهما المشتركة لمينائها ضمن كلامهما على موانئ البجة في القرون السبعة الهجرية الأولى[٢]، وكذلك دراسة نعيمة زين حول الموانئ السودانية ونشاطها التجاري[١].

---

(١) زيادة، عبد الغني، ميناء عيذاب في العصر الوسيط ٤٦٠ ـ ٦٦٦هـ/ ١٠٥٧ ـ ١٢٦٧م، ص ١٧١ ـ ٢٥١، وعبد العزيز، نهى، الأهمية التاريخية لميناء عيذاب الأثري، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٦.

(٢) محمد، عوض، وأحمد مركز، تاريخ موانئ البجة في عصر الدولة الإسلامية (١١هـ/ ٦٣٢م ـ ٦٥٦هـ/ ١٢٥٦م)، ص ١٦١ ـ ١٩٢.

وأعد أحمد موسى دراسة حول النشاط التجاري في البحر الأحمر في عصر المماليك الجراكسة[٢].

وهناك دراستان أعدهما كل من طه حسين هذيل وإلهام الدجاني حول علاقة عيذاب بطريق الحج المصري والإفريقي، ودور الموانئ الإفريقية في نقل الحجاج وإيصالهم إلى الحجاز[٣].

واستعرض جعفر ميرغني باختصار حضور مدينة عيذاب في بعض المصادر التاريخية، وبخاصة مؤلفات القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي وما بعده[٤]، وأعد بشير إبراهيم دراسة حول معالم الحياة الأدبية والدينية في مدينة عيذاب[٥]، بينما اتجهت إيمان عبد الحي لدراسة قبائل البجة وتوزيعهم الجغرافي في الصحراء المصرية[٦].

=

(١) زين، نعيمة، أهمية الموانئ السودانية للتجارة الدولية عبر البحر الأحمر خلال العصر الإسلامي، ص ٣٥١ ـ ٣٧٦.

(٢) موسى، أحمد، النشاط التجاري في البحر الأحمر في عصر المماليك الجراكسة ٧٨٤ ـ ٩٢٢هـ/ ١٣٨٢ ـ ١٥١٦م، ص١٨٩.

(٣) هذيل، طه حسين، دور الموانئ الإفريقية في تسهيل حركة الحج إلى الحجاز في القرنين السادس والسابع الهجريين، ص ٥ ـ ٢٦، والدجاني، إلهام، طريق الحج المصري في العصور الوسطى الإسلامية، ص ٥٣ ـ ٨٨.

(٤) ميرغني، جعفر، عيذاب في المصادر التاريخية، ص ٤١ ـ ٤٩.

(٥) إبراهيم، بشير، عيذاب حياتها الدينية والأدبية، ص ٥٤ ـ ٨٤.

(٦) عبد الحي، إيمان، التوزيع الجغرافي لقبائل البجة في صحراء مصر الشرقية في العصر الوسيط، ص ٦٣٣ ـ ٦٥٢.

والملاحظ أن أغلب الدراسات المتقدمة لم تستفد من مادة الجغرافيين العرب وكتب الرحالة على نحو جيد في رسم صورة المدينة على امتداد الحقب الإسلامية، وبيان أهميتها لدى الجغرافيين والرحالة العرب والمسلمين ومعرفتهم بها، وإنما اتجهت عموماً للاستفادة من مدونات الجغرافيين فيما يتعلق بالنواحي التجارية لمدينة عيذاب وأهمية مينائها البحري، أو لاستعراض موقعها الجغرافي في طريق الحج المصري والمغربي.

ومن هنا جاءت هذه الدراسة لتستوفي الكلام على معالم المدينة في نظر الجغرافيين والرحالة العرب، والتنويه بقيمة ما كتبوه حيالها منذ القرن نهاية القرن الثالث وحتى القرن العاشر الهجري/ التاسع حتى السادس عشر الميلادي.

التعريف بمدينة عيذاب وموقعها الجغرافي

تقع مدينة عيذاب على الجانب الأيسر من البحر الأحمر، على بعد نحو ٢٠ كم إلى الشمال من مدينة حلايب، وعلى بعد نحو ٣٣كم إلى الشمال من ميناء بورتسودان، وهو الميناء الرئيس في السودان، وهي حالياً عبارة عن بقايا آثار متهدمة للميناء وتتبع إلى مصر ضمن مثلث حلايب الذي تسيطر عليه مصر الآن، ولا تزال المنطقة محل نزاع عليها فيما بين السودان ومصر[١].

وذكر اليعقوبي وابن حوقل أن بين عيذاب ووادي العلاقي أربع مراحل[٢]، وضاعف المهلبي مقدار المسافة وجعلها ثمان مراحل[٣]، والمرحلة هي وحدة قياس غير

---

(١) Gibb Aydhab , p ٧٨٢.،

(٢) اليعقوبي، البلدان، ص ٣٣٤، ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٥٢. ويقع وادي العلاقي إلى الجنوب من مدينة أسوان على بعد نحو ١٨٠كم.

(٣) المهلبي، المسالك، ص ٣٦.

محددة المقدار وتختلف من بقعة إلى أخرى بحسب صعوبة الطريق وما فيها من عوائق، ولكنها تدل على مقدار المسافة التي يقطعها المسافر في اليوم بالسير المعتدل، بينما ذكر الإدريسي أن بين عيذاب ووادي العلاقي اثنا عشر يوماً[١]، وتبعد عيذاب نحو مرحلة واحدة عن موضع يسمى ماء حكم[٢]، وبينها وبين مدينة أسوان عشر مراحل[٣]، وضاعف المقدسي هذه المسافة فجعلها من أسوان إلى عيذاب عشرين مرحلة[٤]، وبينها وبين مدينة قفط في البر خمس مراحل[٥]. وقد استغرق السير بالرحالة ناصر خسرو من أسوان إلى عيذاب مدة خمسة عشر يوماً قطع فيها مائتي فرسخ[٦].

وعادة ما يشار إلى المدينة عند الجغرافيين العرب كأحد الموانئ المهمة الواقعة على ساحل بحر القلزم (أي: البحر الأحمر)، فيما بين مدينتي أسوان وسواكن. ومنها يسافر الحجاج وتغادر القوافل بحراً نحو الحجاز[٧]. ويشير التجيبي إلى سبب سكنى عيذاب وعمارتها رغم كونها في الصحراء ومنقطعة عن العمارة، وذلك لأنها تحتوى على مرسى جيد محمي من الرياح، ولهذا أصبح مقصوداً من قبل المراكب والسفن المحملة بالبضائع الهندية القادمة من عدن وغيرها[٨].

---

(١) الإدريسي، نزهة المشتاق، ١/ ٤٧.

(٢) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٥٢.

(٣) الاصطخري، المسالك والممالك، ص ٣٥.

(٤) المقدسيّ البشاريّ، أحسن التقاسيم، ص ٢١٥، وانظر الهامش رقم (e).

(٥) الحميري، الروض المعطار، ص ٤٢٣.

(٦) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ١٣٣.

(٧) اليعقوبي، البلدان، ص ٣٣٥، الحميري، الروض المعطار، ص ٥٨، ٤٢٣.

(٨) التجيبيّ، مستفاد الرحلة، ص ٢٠٦، المقريزي، المواعظ والاعتبار، ١/ ٥٥٠.

ومن اللافت للنظر عدم ذكرها نهائياً عند ابن خرداذبه الذي عدّد كور مصر وذكر أمم النوبة والبجة والحبشة[١]، لكن ذكرها لم ينقطع عند الجغرافيين اللاحقين، وأثبتها كل من الإصطخري وابن حوقل في خارطتهيما[٢].

واختلفت المصادر الجغرافية فيما بينها في تقدير اتساع عيذاب وصفتها، فجعلها بعضهم مدينة[٣]، وقد أطلق عليها الاصطخري صفة مدينة وحصن[٤]، بينما أطلق عليها ابن حوقل الذي زارها وشاهد أحوال البجة ـ كما يقول[٥] ـ تعريفات عديدة، فذكرها كمدينة وحصن وأرض وناحية[٦]، وسماها المسعودي: بلاد العيذاب[٧]، في مدلول يشير إلى سعة بقعتها الجغرافية، ووصفها ابن بطوطة الذي زارها سنة ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م بأنها مدينة كبيرة[٨]، وأطلق عليها الحميري اسم الجزيرة إضافة إلى وصفها بالمدينة[٩]. وفي موضع آخر أشار إلى مينائها بأنه على شكل

(١) المهلبيّ، المسالك والممالك، ص ٨٣.

(٢) انظر الملحق رقم (١)، ورقم (٢).

(٣) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٤٢، أبو عبيد البكري، المسالك، ٢/ ٦١٩، والإدريسي، نزهة المشتاق، ١/ ١٣٢، ابن الوردي، خريدة العجائب، ص ١٤١، الحميري، الروض المعطار، ص ٤٢٣.

(٤) المهلبيّ، مسالك الممالك، ص ٢٩، ٣٥.

(٥) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٥١.

(٦) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٤٢، ٥٠، ١٥٠، ١٦٢.

(٧) المسعودي، مروج الذهب، ١/ ١٢٧.

(٨) ابن بطوطة، تحفة النظار، ١/ ٢٣٠.

(٩) الحميري، الروض المعطار، ص ٣٣٢.

الجزيرة[١]. ويستدرك الإدريسي بعد أن وصفها بالمدينة أنها "ليست بالكبيرة القطر ولا بالآهلة العامرة بالخلق"[٢]. وقد بقيت على هذه الحال بعد نحو قرن ونصف، إذ نقل الرحالة التجيبي عن الإدريسي هذا الوصف بنصه، ونقله الحميري أيضاً[٣]. ولهذا فقد كرر التجيبي إطلاق لفظة البليدة ـ بالتصغير ـ عليها[٤]، ووصفها ناصر خسروا عند مروره بها سنة ٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م بأنها مدينة صغيرة[٥]، وتبعاً لتقديره لعدد سكانها والبالغ نحو ٥٠٠ نسمة[٦]، فإنها لا تخرج عن كونها بلدة صغيرة. وإذا كانت المدينة في مصطلح الجغرافيين الأوائل تدل على التجمع السكاني الذي يتجاوز سكان القرى والبلدات، وتتوفر فيها مقومات المدينة من المساجد والمعالم العمرانية والكثافة السكانية العالية فإن عيذاب لم تكن ترقى لمستوى المدينة، ولكن لكونها اشتملت على تجمع سكاني في منطقة مقطوعة، إضافة لأهمية مينائها للتجار حملت اسم المدينة.

أما مناخها فيوصف بالحر الشديد وهوائها أشبه بالسموم المحرق[٧]، وقد أشار الرحالة التجيبي إلى شدة الحر فيها، فلا يكاد الإنسان يتنفس إلا وشعر بأن أحدهم يقبض على أنفه، وكأن النار تلفح وجهه، وماء بحرها في غاية السخونة والحرارة. وقد

(١) الحميري، الروض المعطار، ص ٤٢٣.
(٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، ١/ ١٣٤.
(٣) التجيبي، مستفاد الرحلة، ص ٢٠٥، الحميري، الروض المعطار، ص ٤٢٣.
(٤) التجيبيّ، مستفاد الرحلة، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٧.
(٥) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ١٣٤.
(٦) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ١٣٣.
(٧) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ١/ ٥٥٢.

عبر التجيبي عن معاناته من سوء مناخها أثناء إقامته بها، حتى كادت القلوب تبلغ الحناجر من شدة حرها وسخونة هوائها[١].

أهمية موقع عيذاب الجغرافي:

أشار الجغرافيون العرب لأهمية عيذاب وموقعها على الطريق التجاري ومكانة مينائها في النشاط التجاري في البحر الأحمر، فمنها يتم العبور إلى ساحل الحجاز وإلى جدة، ومنها يسلك إلى بلاد اليمن والهند وغير ذلك من البلاد[٢]، وقد نوه العديد من الجغرافيين بأهمية المدينة ومينائها التجاري، قال اليعقوبي: "فيركب الناس منه إلى مكة والحجاز واليمن، ويأتيه التجار فيحملون التبر والعاج وغير ذلك في المراكب"[٣].

وحدد الزمخشري وجهة المراكب البحرية المنطلقة من ميناء عيذاب نحو الحجاز، فكانت ترسي في ميناء الجار الواقع على مسافة قليلة من ينبع، قال في كلامه على الجار: "والجار قرية على ساحل البحر، بها تُرسى مطايا القُلزُم ومطايا عَيذاب ومطايا بحر النعام، وبَرّقة حسمى"[٤]. ومقصوده بالمطايا: السفن والمراكب. بينما جعل

(١) التجيبيّ، مستفاد الرحلة، ص ٢٠٦.

(٢) مجهول، الاستبصار، ص ٨٣، الحميري، الروض المعطار، ص ٥٨، المقريزي، المواعظ والاعتبار، ١/ ٥٥٠.

(٣) اليعقوبي، البلدان، ص ٣٣٥، وانظر: أبو عبيد البكري، المسالك والممالك، ٢/ ٦١٩، مجهول، الاستبصار، ص ٨٧. وانظر أيضاً: عوض محمد، تاريخ موانئ البجة، ص ١٦٤ ـ ١٦٧، ونهى عبد العزيز، الأهمية التاريخية لميناء عيذاب، ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

(٤) الزمخشري، الجبال، ص ١٨٦.

الحميري نزول المراكب القادمة من عيذاب نحو الحجاز في ميناء جدة[١]. ومقدار المسافة منها إلى الحجاز وتحديداً إلى مرسى جدة عرضاً مجرى يوم وليلة[٢]. وعندما اجتاز التجيبي البحر من عيذاب نزل هو ومن معه في مرسى أبحر على بعد ساعتين من جدة[٣].

وإضافة لتجارتها البحرية، فقد كانت مركز تجارياً برياً فيما بين اليمن والتجارات القادمة من الهند وبين مصر، وهي مجمع وملتقى التجار براً وبحراً، وأهلها يتعاملون بالدراهم عدداً ولا يعرفون الوزن، واللبن والعسل والسمن بها كثير[٤]، ومن البضائع التي تتكدس في عيذاب بانتظار نقلها إلى مصر وغيرها من الجهات أحمال البهار والتوابل كالقرفة والفلفل وغيرهما[٥].

ولأجل موقعها على ساحل البحر، فقد استفاد أهلها من كونها مركزاً تجارياً مهماً، وقد لاحظ ابن جبير يسار أهلها وتوفر الثروة لديهم من التجارة ومرور الحجاج منها، ووصفها بأنها أحفل مراسي الدنيا نتيجة لنزول المراكب الهندية واليمنية فيها والمغادرة منها، إضافة الى مراكب الحجاج القادمة والمغادرة. ورغم كونها صحراء ينعدم فيها النبات، إلا أن أهلها وسكانها يجمعون أموالاً كثير من المسافرين بخاصة من الحجاج، لأنهم يتقاضون ضريبة عن كل ما يحمله المسافر أو الحاج من الطعام، بالإضافة الى الضرائب الأخرى التي يتم تحصيلها من قبل الإدارة في عيذاب، كما

(١) الحميري، الروض المعطار، ص ٥٨، ١٥٧، ٤٢٣.
(٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، ١/ ١٣٤، الحميري، الروض المعطار، ص ٤٢٣.
(٣) التجيبيّ، مستفاد الرحلة، ص ٢١٥.
(٤) ابن الوردي، خريدة العجائب، ص ١٤١.
(٥) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ـ ١/ ٥٥٠.

استفاد أهلها من تأجير المراكب للحجاج لأجل نقلهم عبر البحر الأحمر نحو جدة وإعادتهم منها بعد انتهاء موسم الحج وأداء الفريضة، ولهذا فإن كل واحد من أهل عيذاب الميسورين إلا وله مركب أو مركبان تعود عليهم بمال كثير[١].

ومن عيذاب كان إحرام الحجاج المصريين والمغاربة الذين يختارون السفر بواسطة طريق عيذاب[٢]، وقد تناولت كتب الفقه مسألة الإحرام من عيذاب، مثلما تناولها الرحالة التجيبي وأورد رأي العديد من العلماء في جواز الإحرام منها أو عدمه، ورجَّحَ هو أن يكون الإحرام من جدة وفضَّل [٣].

الطرق البرية الموصلة إلى عيذاب:

ذكر ناصر خسرو والبكري أن من مدينة قوص إلى عيذاب طريقان أحدهما برية صحراوية قفر ورمال لا ماء فيها وتخلو من العمران، تسمى طريق الوضح، وتبلغ ١٨ مرحلة وتثور فيها الريح فتخفي معالمها ولا يمكن سلوكها إلا بالخبرة المتحصلة للجمالين والمعتادين على عبورها، والطريق الأخرى يقطعها المسافر بمسايرة نهر النيل، وقد اختار ناصر خسرو السفر على الطريق الثانية "طريق النيل" وهي إلى الغرب من الطريق الصحراوية التي تخترق صحراء عيذاب[٤]. وبعد مغادرة أسوان مر بواد يسمى وادي ضيقة = الحوض = عيذاب[٥].ونجد عند اليعقوبي تتبعاً للمنازل الواقعة بين أسوان أو وادي الضيقة حتى عيذاب، وهي كما يلي: أسوان = الضيقة = البويب =

(١) ابن جبير، الرحلة، ص ٤٥، ونقله الحميري باختصار، انظر: الروض المعطار، ص ٤٢٤.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٧٨.

(٣) التجيبيّ، مستفاد الرحلة، ٢٠٨ ـ ٢١٢.

(٤) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ١٣٢، البكري، المسالك والممالك، ٢/ ٦١٩ ـ ٦٢٠.

(٥) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ١٣٣.

البيضية = بيت ابن زياد = عذيفر جبل الأحمر = جبل البياض = قبر أبي مسعود = عفار = وادي العلاقي = وادي الجبل مرحلة = عنب = كبار = عيذاب[١].

وعلى هذه الطريق تسير القوافل التجارية من عيذاب بواسطة الإبل وصولاً إلى إسوان ثم تواصل سيرها بواسطة المراكب التي تنقل البضائع في نهر النيل وصولاً إلى القاهرة[٢].

ويشير الإدريسي إلى صعوبة سلوك الطريق من الصعيد إلى عيذاب نتيجة عدم وجود معالم دالة، يقول: "وليس بها طريق معروف ولا يستدل عليها إلا بالجبال والكدى الناتئة لأنها رمال سائلة وضحاضح (أي مسيلات الماء) غامرة، وربما أخطأ بها الدليل الماهر وأكثر الاستدلال بها بالنجوم ومسير الشمس من المشرق إلى المغرب"[٣].

وحدد ابن جبير الطريق المسلوكة إليها من مدينة قوص، وذكر أن هناك طريقان مسلوكتان تلتقيان بموضع يسمى دنقاش أو بماء قربه يسمى شاغب: أحدهما وهي الأقرب تمتد من قوص = المبرز في قبلي قوص = ماء الحاجر = قلاع الضياع = محط اللقيطة = ماء العبدين = صحراء عيذاب = دنقاش = شاغب.

أما الطريق الثانية فهي تسلك وادي النيل، إذ يخرج المسافر من قوص إلى قنا على ضفة النيل ويوالي مسيره جنوباً حتى يصل دنقاش أو شاغب فيلتقي مع مسافري الطريق الأخرى. ويتابع المسافرون مسيرهم بعد مغادرة ماء شاغب فيمرون على

---

(١) اليعقوبي، البلدان، ص ٣٣٤.

(٢) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ١٣٤.

(٣) الإدريسي، نزهة المشتاق، ١/ ١٣٢، ونقله عنه ابن الوردي، خريدة العجائب، ص ١٤١.

موضع يسمى أمتان وبينه وبين ماء شاغب مسيرة يوم، ومنها إلى ماء يسمى مجاج في مسيرة نصف يوم، ويجتاز المسافر لمدة يوم في صحراء الوضح وهي رمال بيضاء على مد البصر يقابلها بر الحجاز على الضفة اليمنى من البحر الأحمر ثم ويكون الوصول إلى العشراء التي تبعد عن عيذاب ثلاث مراحل، ودون عيذاب ماء يسمى ماء الخبيب يمكن منه رؤية عيذاب[١].

ووصف التجيبي بدقة المنازل التي مر بها منذ خروجه من قوص إلى عيذاب ومنها بواسطة البحر إلى الحجاز، وتتشابه بعض معالمها مع الطريق الأولى التي ذكرها ابن جبير، فأول منزل بعد مغادرة قوص على بعد ثلاثة أميال هي قرية العباسة = مسيد النبي على أميال قليلة = الدير = وادي علي = وادي حماد (ماء اللقيطة) = وادي دندان = فضل الخيام = المحدث = الميراد (ميراد زيدون) = المعاصر = ماء الدغبج = الجهندي = الحريفاء = شعتان = قبطان = خشب الوعر = حميثرا = مدسوس = صُليعة = أمتان = توينان = بريدان = الأحساء = شهاب = ضيفان = الفنكلة = بئر الجنيب (وهي التي سماها ابن جبير: الخبيب) = عيذاب[٢].

ولم يتعرض أحد من الجغرافيين أو الرحالة لانعدام الأمن في هذه الطريق، بل نوه بعضهم بتوفر الأمن والأمان عليها[٣].

وكانت الحقبة التي نشط فيها استخدام هذه الطريق بالنسبة للحجاج المصريين والمغاربة هي في أثناء الحروب الصليبية، عندما انقطعت الطرق البرية الموصلة للحجاز في جنوبي بلاد الشام وبخاصة من نواحي أيلة (العقبة جنوب الأردن)، واستمر السفر

---

(١) ابن جبير، الرحلة، ص ٤١ ـ ٤٥.

(٢) التجيبي، مستفاد الرحلة، ص ١٩٦ ـ ٢٠٥.

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢١٥.

على طريق عيذاب نحو قرنين من الزمان، منذ منتصف القرن الخامس الهجري وحتى سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م عندما قام السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري بتسيير قافلة للحج على الطريق البرية للحجاز ومعها كسوة الكعبة المشرفة، فقل من ذلك الوقت استخدام طريق عيذاب من قبل الحجاج واقتصر على السفر براً على الدرب الحجازية المعروفة[١].

على أن مدينة عيذاب لم تسلم من الاعتداءات الصليبية وكانت هدفاً مباشراً للهجمة الصليبية التي قادها القائد الصليبي رينو دي شايتون المعروف في المصادر العربية باسم: "أرناط"، ومحاولته في سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م السيطرة على المدينة وميناءها لتكون أقصى توسع صليبي في ناحية الجنوب، وتمكن الأيوبيون من دحر الحملة وإفشالها، رغم ما خلفته من نهب وسلب وتدمير للمراكب الإسلامية التي واجهتها في البحر الأحمر[٢].

الإدارة في عيذاب وتبعيتها الإدارية

يبدو أن تبعية عيذاب في القرون الأربعة الأولى لم تكن واضحة المعالم، فيذكرها المسعودي عند كلامه على البحر الأحمر بأنها بلاد من صعيد مصر وأرض البجة[٣]، وكانت تتبع في منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي إلى

(١) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ١/ ٥٤٩ ـ ٥٥٠.

(٢) ينظر تفصيل الحملة الصليبية على عيذاب وأهدافها ونتائجها لدى عوض، محمد: الرها، عيذاب، تونس "أقصى حدود التوسعات الصليبية" ص ٢٤ ـ ٣٢.

(٣) المسعودي، مروج الذهب، ١/ ١٢٧.

الدولة العبيدية بمصر، ويتم تحصيل الضرائب منها لصاحب مصر[١]، ويبدو أن تبعيتها الإدارية تغيرت بعد ذلك نتيجة ضعف الخلافة الفاطمية، فأصبحت تحت الإدارة المشتركة بين المصريين والبجة، فينزل بها عامل (أو والي) من قبل رئيس البجة، وعامل من قبل ملوك مصر، ويقتسمون جبايتها بنصفين، وعلى عامل صاحب مصر القيام بجلب الأرزاق والمعيشة إلى عيذاب وعلى رئيس البجة القيام بحمايتها من الحبشة، والرئيس المقيم بعيذاب من قبل ملك البجة ينزل الصحارى ولا يدخل المدينة إلا غبا"[٢].

كانت الإدارة في وقت زيارة الرحالة التجيبي لها في سنة ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م منقسمة بين السلطان المملوكي وبين ملك البجاة المقيم بجزيرة سواكن، يقتسمان إدارتها وجبايتها بينهما مناصفة[٣]، ولكن يبدو أن هذا الاتفاق تغير بعد نحو ثلاثين سنة من رحلة التجيبي إذ مر بها ابن بطوطة سنة ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م ووجد الإدارة والجباية فيها بين المماليك والبجاة مقسومة على نحو يكون فيه ثلث المدينة للملك الناصر وثلثاها لملك البجاة المعروف بالحدربي، وكانت الحرب بينهما وقت مروره مشتعلة بين الطرفين، ولم يتمكن ابن بطوطة من مواصلة رحلته لأداء الحج منها وركوب البحر بسبب هذه الحروب، وقيام ملك البجاة بخرق المراكب البحرية وملاحقته لجنود المماليك، فعاد إلى الشام ليواصل حجه منها[٤]. وربما يفسر سبب اشتعال الحرب بين

---

(١) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ١٣٣.

(٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، ١/ ١٣٤ ـ ١٣٥، ابن الوردي، خريدة العجائب، ص ١٤١، الحميري، الروض المعطار، ص ٤٢٣.

(٣) التجيبي، مستفاد الرحلة، ص ٢٠٦.

(٤) ابن بطوطة، تحفة النظار، ١/ ٢٣٠ ـ ٢٣١.

الطرفين كان نتيجة لاستحواذ البجة على ثلثي ما يرد من جباية المدينة في مقابل ثلث للمماليك.

وأسرة الحدربي التي ذكرها ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري والتي ينتمي لها ملك البجاة هي أسرة قديمة، وهي التي تتزعمهم، فقد ذكر اليعقوبي (ت ٢٩٢هـ/ ٩٠٥م) أن البجة يسمون الحدارية[١].

ونتيجة تقلب الإدارة في عيذاب، فقد اختلفت الآراء في تبعية المدينة خلال القرنين السابع والثامن الهجريين، وأشار أبو الفداء لاختلاف الآراء فيها، وإن كان رأيه أنها مصرية، قال: "وقد اختلف فيها؛ فبعضهم يحدّ ديار مِصْر على وجه تدخل فيه وهو الأشبه لأنّ الولاة فيها من مِصْر وهي من أعْمَال مِصْر حقيقة، وبعضهم يجعلها من بِلاَد البجا، وبعضهم يجعلها من بِلاَد الحبشة"[٢].

صحراء عيذاب:

تقع عيذاب ضمن الصحراء المنسوبة إليها، وهي عبارة صحراء ممتدة تتجوّل فيها قبائل السودان من البجة[٣]. وارتبط بمصاعب السفر نحو عيذاب الإشارة إلى صحرائها القاسية والصعبة المرور، فقد واجهت المسافرين والرحالة القادمون من مصر إلى ميناء عيذاب مصاعب جمة عند مرورهم في البرية الواقعة بين قوص وعيذاب، والتي أطلقوا عليها اسم صحراء عيذاب. وكانت طريقهم من مصر إلى قوص بواسطة

(١) اليعقوبي، البلدان، ص ٣٣٦، وانظر: المقريزي، المواعظ والاعتبار، ١/ ٥٣٠.
(٢) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ١٢٠.
(٣) أبو عبيد البكري، المسالك والممالك، ٢/ ٦١٩.

نهر النيل، ثم يركبون الجمال لقطع صحراء عيذاب الطويلة، مثلما يسلكونها في طريق العودة للقادمين من اليمن أو الحجاز.

وذكر الإدريسي صحراء عيذاب، ووصفها بأنها صحراء لا جبل حولها وإنما هي رمال لينة وسباسب (أي: رمال منبسطة) سائلة[١]، وذكرها في موضع آخر من كتابه بأنها صحارى متصلة الخلاء ليس بها ساكن ولا ينزلها قاطن إلا قوم من البجة رحالة ولا يقيمون بها إلى مدة يسيرة لانعدام الماء بأمكنتها وقلة وجوده بها، بل وصف ماء جب حميرة (وصوابه: حميثرا) بأنه من أعجب العجب لأن ماءه لا ينزل من بطن شاربه مثل بقية المياه بل يخرجه الشارب سريعاً من موضع الغائط، ولا يبقى بمعدته منه شيء، ولأجل قلة الماء في صحراء عيذاب فإن المسافرين يتجنبون السفر في الصيف نظراً "لاشتداد الحر وسموم القيظ لجفوف الماء بها ورياحها المنشفة وأرضها النارية المهلكة وإنما يمر بها السالكون في آخر أيام الخريف"[٢].

وقدر الإدريسي الزمن الذي يستغرقه المسافر للسير في صحراء عيذاب فيما بين قوص وعيذاب بنحو عشرين يوماً[٣]، بينما أمضى التجيبي مدة شهر ويومين للوصول من قوص إلى عيذاب، وكانت مدة السفر من منزلة الدير التي تمثل بداية الصحراء حتى وصوله إلى عيذاب ٢٦ يوماً[٤]. وقدر ابن بطوطة مدة السير التي يقطعها

(١) الادريسي، نزهة المشتاق، ١/ ٤٦.

(٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، ١/ ١٣٤.

(٣) الإدريسي، نزهة المشتاق، ١/ ١٣٤.

(٤) التجيبيّ، مستفاد الرحلة، ص ٢٠٥.

السالك في صحراء عيذاب بخمسة عشر يوماً[١]، بينما قدر الحميري مسافتها من قوص إلى عيذاب في عشرين يوماً[٢].

ويقول مؤلف الاستبصار أن ما بين مدينة أسوان وهي آخر مدن مصر وبين بلاد النوبة الذين يصفهم بالكفرة هي عبارة عن جبال وأوعار تحول بينهم وإلا لأفسد النوبة بلاد مصر. والنيل إنما يهبط من بلاد النوبة على صخور وأوعار ولا يدخل ذلك الموضع مركب. ومن أسوان الطريق إلى عيذاب ؛ وعيذاب مدينة على ضفة البحر الغربى المعروف ببحر القلزم[٣].

ولا بد لكل القادمين من بلاد الصعيد مروراً بمدينة قوص أو من مدينة أسنا أو أدفو من عبور صحراء عيذاب، وقد مر بها الرحالة ابن جبير وأشار إلى صعوبتها، ووصفها بأنها صحراء لا عمارة فيها، وتتباعد مواضع الماء فيها، وقد سمى أحد منازلها باسم "ماء العبدين"، لأنهما ماتا عطشاً قبل أن يصلا هذا الماء فسمي هذا الموضع بهذا الاسم، والصحراء مشهورة بالحر الشديد، ولا يمكن عبورها إلا بواسطة الإبل لصبرها على الظمأ وتحمل المشقة يركبونها بالجلوس في الشقادف التي تشبه الهودج[٤]، وفي حميثرا الواقعة في صحراء عيذاب عين ماء زعاق[٥]، ولعل هذا الماء هو الذي وصفه الإدريسي ـ ونقله عنه الحميري ـ بأنه ماء رديء لا يستقر في جوف

(١) ابن بطوطة، تحفة النظار، ١/ ٢٣٠.
(٢) الحميري، الروض المعطار، ص ٥٥٧.
(٣) مجهول، الاستبصار، ص ٨٧.
(٤) ابن جبير، الرحلة، ص ٤١ ـ ٤٢.
(٥) ابن بطوطة، تحفة النظار، ١/ ١٨٧.

الإنسان[١] ، بينما أشار ابن بطوطة إلى كثرة الضباع في هذه الصحراء، وقد تعرض متاعه لمهاجمة الضباع التي استلبت منه كيس تمر ومزقته[٢].

وقد نوه كل من ابن جبير وابن بطوطة إلى توفر الأمن في صحراء عيذاب[٣].

وربما كان ذلك نتيجة لتولي عرب بني دغيم خفارة الطريق فيما بين عيذاب وقوص[٤].

وقد ارتبطت صحراء عيذاب في أذهان الصوفية لوفاة مؤسس الطريقة الشاذلية المغربي أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي فيها سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، إذ قدم من تونس إلى مصر حاجاً وسلك طريق عيذاب فتوفي في طريقه بصحراء عيذاب بموضع يسمى حميثرا ودفن فيها، ويقصد بعض الحجاج قبره للزيارة والتبرك[٥].

مخاطر سلوك طريق عيذاب ـ جدة البحري عند المسافرين والحجاج:

رغم ما يختصره الطريق البحري عبر عيذاب للحجاج القادمين من مصر وبلدان المغرب، والتي تقلل مدة السفر بنحو أسبوعين[٦]، فقد كانت طريقه غير مرغوبة، ويلجأ الحجاج والمسافرون إلى اتخاذ طريق البر من سيناء نحو أيلة (العقبة حالياً في جنوب الأردن) ومنها على الدرب الحجازية رغم كثرة العقبات ووعورة

(١) الإدريسي، نزهة المشتاق، ١/ ١٣٤، الحميري، الروض المعطار، ص ٥٥٧.

(٢) ابن بطوطة، تحفة النظار، ١/ ٢٣٠.

(٣) ابن جبير، الرحلة، ص ٤٢، ابن بطوطة، تحفة النظار، ١/ ٢٢٩.

(٤) التجيبي، مستفاد الرحلة، ص ٢٠١ ـ ٢٠٢، ابن بطوطة، تحفة النظار، ٢/ ١٦٠.

(٥) التجيبي، مستفاد الرحلة، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤، ابن بطوطة، تحفة النظار، ١/١٨٧، ٢/١٦٠.

(٦) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ١٠١.

الطريق، والسبب في عزوف المسافرين عن سلوك طريق البحر من عيذاب نحو الحجاز يرتبط بالعديد من الأخطار والصعوبات، وهي:

صعوبة الإبحار في بعض مواضع البحر الأحمر، وبخاصة بين عيذاب والحجاز: فقد أشار الإدريسي في كلامه على بحر القلزم (البحر الأحمر) إلى كثرة وجود الأقاصير وهي الشعب المرجانية أو الحجارة الناتئة في قعر البحر والتي تتسبب بتلف المركب، ولا يركبه لأجل ذلك إلا الربابنة العالمون بأقاصيره العارفون بطرقه ومجاريه[1]. ونوه في موضع آخر إلى كثرة وجود النتوءات التي تكثر في قعر البحر الأحمر والتي قد تخرق المراكب، وتفادياً لضررها فإن ربان المركب يتخذ بعض الآلات الهندسية ويجلس في أعلى الصاري لرؤية ما في بطن البحر وتجنب التروش المخفية تحت الماء، "فيقول للماسك على المركب «خذ إليك» و «ادفع عنك» ولولا ذلك ما عبره أحد، وآفاته كثيرة في المراكب، والمسافرون في هذا البحر يأوون منه في كل ليلة إلى مواضع يسكنون فيها ويلجأون إليها خوفاً من معاطبه وينزلون بها نهاراً ويقلعون عنها نهاراً حالاً دائماً سير النهار وإقامة الليل"[2]. ووافقه التجيبي على ذلك وأكد كلامه ووصف بحر القلزم بأكمله بأنه صعب السلوك لتعرج مسالكه ولا يدخله إلا الربانيون العارفون المهرة الذين يعرفون مواطن الصعوبة فيه[3].

عدم موافقة الريح للسفر واختلافها في البحر بما يؤدي بالمراكب للانحراف عن موضع مرسى عيذاب شمالاً وردها إلى سواحل أخرى في أطراف صحراء عيذاب:

---

(١) الإدريسي، نزهة المشتاق، ١/ ١٠.

(٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، ١/ ١٣٧.

(٣) التجيبيّ، مستفاد الرحلة، ص ٢٠٦.

وهذه مسألة يأخذها الحجاج بعين الاعتبار، إذ ربما تسبب تعطل السفر من فوات موسم الحج على المسافر، وأجبره للعودة من حيث أتى، وقد اضطر الرحالة ناصر خسرو للمكوث في عيذاب رغم صعوبة العيش فيها لمدة ثلاثة أشهر متتالية، إذ لم تتمكن السفينة من الإقلاع من المرسى لكون الريح الشمالية، ولا يمكن الإبحار إلا بريح جنوبية[١].

وتحدث ابن جبير الذي ركب هذا البحر من عيذاب نحو جدة عن صعوبة الإبحار فيه وأشار إلى بعض أهواله، قال: "والركوب من جدة إليها آفة للحجاج عظيمة إلا الأقل منهم ممن يسلمه الله عز وجل، وذلك أن الرياح تلقيهم على الأكثر في مراس بصحارى تبعد منها مما يلي الجنوب، فينزل إليهم البجاة، وهم نوع من السودان ساكنون بالجبال، فيكرون (يستأجرون) منهم الجمال ويسلكون بهم غير طريق الماء. فربما ذهب أكثرهم عطشاً وحصلوا على ما يخلفهم من نفقة او سواها. وربما كان من الحجاج من يتعسف تلك المجهلة على قدميه فيضل ويهلك عطشاً. والذي يسلم منهم يصل الى عيذاب كأنه منشر من كفن، شاهدنا منهم مدة مقامنا أقواماً قد وصلوا على هذه الصفة في مناظرهم المستحيلة وهيئاتهم المتغيرة، آية للمتوسمين. وأكثر هلاك الحجاج بهذه المراسي، ومنهم من تساعده الريح الى أن يحط بمرسى عيذاب، وهو الأقل"[٢].

وقد عانى ابن جبير من اختلاف الريح، إذ عندما اقترب مركبهم من بر الحجاز، هبت رياح شديدة حرفت المركب عن مساره بحيث أصبحوا لا يعرفون إلى أين مسيرهم، ولولا ربان المركب الذي وصفه بالحذق والمهارة لهلكوا: "وأقمنا ليلتنا

(١) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ١٣٢.

(٢) ابن جبير، الرحلة، ص ٤٦ ـ ٤٧، المقريزي، المواعظ والاعتبار، ١/ ٥٥١.

تلك في هول يؤذن باليأس، وأرانا بحر فرعون بعض أهواله الموصوفة، إلى أن أتى الله بالفرج مقترناً مع الصباح. فهدأ قياد الريح وأقشع الغيم وأصحت السماء ولاح لنا بر الحجاز على بعد لا نبصر منه إلا بعض جباله، وهي شرق من جدة، زعم ربان المركب وهو الرّائس (أي الرئيس)، أن بين تلك الجبال التي لاحت لنا وبر جدّة يومين"[١].

وكانت معاناة التجيبي أشد صعوبة، فقد فصل الكلام على ما واجهه من مشاكل في عبور البحر نحو الحجاز، فعندما توسط المركب في البحر ثارت عاصفة من الريح وعظم الموج وكاد المركب أن يغرق، فأجمع الملاحون رأيهم على العودة إلى عيذاب، وبعد يوم ونصف عاد المركب للإبحار ثانية ووقع لهم من هيجان البحر أكثر من المرة الأولى، وتعالت صيحات الناس والبكاء والصياح والدعاء لله والتضرع إليه، حتى أن ملاحي المركب فكروا بالتسليم وإلقاء أنفسهم في الماء، وتمكن المركب من العودة مرة ثانية إلى بر عيذاب والنزول بمرسى قرب سواكن وقد اختلت ألواح المركب بما يتعذر الإبحار فيه، واستنجد الحجاج بقاضي عيذاب لإرسال مركب آخر فوصلهم وحملهم سالمين إلى ميناء أبحر قرب جدة[٢].

وبعد التجيبي بنحو ثلاثين عاماً ركب ابن بطوطة هذا البحر من جدة نحو عيذاب، وكانت الريح في أول يومين طيبة ومناسبة للسفر، لكنها في اليوم الثالث تغيرت، وعلا الموج حتى دخل في المركب، وعانى الركاب من أهوال البحر فألقتهم

(١) ابن جبير، الرحلة، ص ٥٠.

(٢) التجيبي، مستفاد الرحلة، ص ٢٠٨ ـ ٢١٥.

الريح إلى مرسى يقع جنوب عيذاب فيما بينها وبين سواكن يسمى "رأس دوائر"[١]. كما ركبه في سفرته الثالثة من عيذاب إلى جدة في سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م ولم يفصل الكلام على أحوال البحر وذكر عبوره باقتضاب[٢].

سوء المراكب البحرية المخصصة للإبحار فيما بين جدة وعيذاب: وكان أغلب أهل عيذاب يمتهن نقل المسافرين فيما بينها وبين عيذاب، وربما كان للواحد من أهالي عيذاب أكثر من مركب[٣]، ولكنها مراكب سيئة الصنع، ضعيفة البنية، يتم صناعتها بتركيب الألواح بعضها فوق بعض بدون مسامير وإنما يربطونها بحبال الليف المفتولة أو بأمراس القنبار وهو قشر جوز النارجيل بعد أن يتم إعداده ليكون حبلاً، ثم يدبغونها، ويسدون الفراغات بعيدان النخيل، ويدهنونها بدهن مصنوع من دهن الحوت (القرش) أو السمن أو دهن الخروع، أما الشراع فيكون من الحصر المنسوجة من الخوص المعد من شجر المقل (المعروف أيضاً بشجر الدوم)، وهي بهذا ضعيفة الصناعة وعرضة للغرق مع اضطراب الموج وشدة الرياح، ورغم ذلك فإن أصحاب هذه المراكب يحملونها من الحجاج بأكثر مما تحتمل بما يعرض الجميع للخرق والهلاك[٤].

وكان ابن بطوطة قد قرر السفر من جدة إلى عيذاب في مركب متوجه إلى ميناء القصير على ساحل البحر الأحمر من نواحي قوص، يمتلكه رجل تونسي، فلما صعد

---

(١) ابن بطوطة، تحفة النظار، ٢/ ١٠٠، ١٥٩.

(٢) ابن بطوطة، تحفة النظار، ٤/ ١٨١.

(٣) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ١/ ٥٥١.

(٤) ابن جبير، الرحلة، ص ٤٦ ـ ٤٧، التجيبي، مستفاد الرحلة، ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨، وانظر: المقريزي، المواعظ والاعتبار، ١/ ٥٥١.

إليه وجده في حالة سيئة فلم يسافر فيه، ولما غادر المركب وتوسط البحر غرق ذلك المركب بمن فيه ونجى بعض ركابه وغرق من جملة ركابه نحو سبعين حاجاً[١].

الضرائب المفروضة على المسافرين والحجاج: اعتبرت عيذاب في وقت تبعيتها للدولة العبيدية بمصر مركزاً لتحصيل الضرائب من السفن التجارية القادمة من الحبشة وزنجبار واليمن وغيرها[٢]، وذكر الحميري أن جماعة يعرفون ببني يونس ممن يقيمون في مرسى عيذاب كانوا يمتهنون أخذ العشور من التجار[٣]. وعندما تدخل البجة في إدارتها أصبح جزءاً من المكوس والضرائب تؤخذ من الحجاج.

وتحدث الإدريسي عن الضرائب التي يتم تقاضيها من حجاج المغرب، والبالغة ثمانية دنانير من الذهب على كل رأس، وقدرها ابن جبير بسبعة دنانير ونصف من الدنانير المصرية التي هي خمسة عشر ديناراً مؤمنية على كل رأس[٤]، ولا يسمح لأي حاج بالعبور إلى جدة دون إظهار ما يثبت دفع الضريبة، وإذا قام ربان المركب بتهريب الحاج وتمكينه من العبور دون دفع الضريبة، فيتم تغريم الرباني، وعند وصول الحجاج إلى مرسى جدة أو غيرها من مراسي الحجاز يقوم موظفو الضرائب المخصصين من قبل والي الحجاز الهاشمي فيقومون بفحص الأمتعة وتقييد ما حمله الحجاج في الدفاتر وتقدير الضريبة المفروضة على كل واحد، ويتأكدون من أن لدى كل حاج ورقة براءة تفيد بأنه دفع الضريبة في عيذاب، وإذا لم يجدوا معه ما يثبت ذلك يتم

(١) ابن بطوطة، تحفة النظار، ٢/ ١٥٩.

(٢) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ١٣٣.

(٣) الحميري، الروض المعطار، ص ٤٢٣.

(٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، ١/ ١٣٥، ابن جبير، الرحلة، ص ٣٠، الحميري، الروض المعطار، ص ٤٢٤.

محاسبة الربان الذي سمح له بركوب المركب، وربما تعرض الحاج إلى عقوبة السجن فيفوته موسم الحج، ويتم إنفاق ما يتم تحصيله من ضرائب الحجاج في الحجاز على أرزاق جند الأمير الهاشمي وبعض متطلبات حكمه[١].

وإضافة إلى الضرائب المفروضة من الحجاج من قبل السلطة الإدارية في عيذاب، فإن أهالي عيذاب يتقاضون رسماً آخر منهم على كل حمل من الطعام، وقد شكلت هذه الضرائب مصدر دخل لسكان عيذاب[٢]، ويذكر ابن جبير أن السلطان صلاح الدين أبطل هذه الضرائب المفروضة على الحجاج والتي استمرت طيلة العصر الفاطمي، وتسببت بالمعاناة الكبيرة للحجاج المغاربة ومن رافقهم، ويتعرضون للضغط والإساءة لدفعها وإلا ناله العذاب[٣]، ولكن الضرائب التي أبطلها صلاح الدين لم تلبث أن فُرضت مرة أخرى في العصر المملوكي حسبما يذكر التجيبي الذي مر بعيذاب سنة ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦ م، وأشار إلى إثقال كاهل الحجاج بالضرائب وتفتيش أمتعتهم وأزوادهم ورحالهم، لتقدير الضريبة عليهم بحسب أحوالهم، وقد تم إسقاط الضريبة عن القافلة التي قدم التجيبي برفقتها وإعفاء الحجاج من دفعها نظراً لوصول مكتوب من مصر بإعفاء الحجاج منها[٤].

معاملة أهل عيذاب السيئة للحجاج واستغلالهم: لما كان بعض وجوه التكسب لدى أهل عيذاب من امتهان نقل الحجاج في المراكب البحرية، فكانوا يشحنون المراكب بأعداد تفوق سعتها ومقدرتها، "حتى يجلس بعضهم على بعض،

(١) الإدريسي، نزهة المشتاق، ١/ ١٣٥، الحميري، الروض المعطار، ص ٤٢٤.

(٢) ابن جبير، الرحلة، ص ٤٥، المقريزي، المواعظ والاعتبار، ١/ ٥٥١.

(٣) ابن جبير، الرحلة، ص ٣٠ـ ٣١.

(٤) التجيبي، مستفاد الرحلة، ص ٢٠٦.

وتعود بهم كأنها أقفاص الدجاج المملوءة، يحمل أهلها على ذلك الحرص والرغبة في الكراء حتى يستوفي صاحب الجلبة منهم ثمنها في طريق واحدة ولا يبالي بما يصنع البحر بها بعد ذلك، ويقولون: علينا بالألواح، وعلى الحجاج بالأرواح. وهذا مثل متعارف بينهم"[١]. ولأجل ذلك فقد نبه ابن جبير من يرد الحج على عدم سلوك عيذاب، واختيار أي طريق أخرى غيرها، وذكر الحميري الذي نقل من كلام ابن جبير المتقدم أخلاق بني يونس الذين يقيمون في مرسى عيذاب ووصفهم بالفجور والفحش، واستغلالهم للحجاج والمسافرين وإرهاقهم بالنفقات[٢].

قلة الماء في الطريق إلى عيذاب: فلا يوجد بين مدينة قفط وعيذاب في البر ماء إلا في موضعين[٣]، ويذكر الرحالة التجيبي أن أغلب المواضع التي مرت بها القافلة التي رافقها كانت خالية من الماء، فقد عدد التجيبي ٢٧ موضعاً فيما بين قوص وعيذاب، وكان ١٧ موضعاً منها خالية من الماء تماماً، أما التي توفر فيها الماء فهو قليل لا يكفى القوافل برجالها ودوابها، وبعضها الآخر سيئ لا يشرب، مثل ماء حميثرا، إذا شربه الإنسان أخرجه من معدته مباشرة[٤]، ومن الماء ما يتغير لونه ورائحته عند تعبئته في القرب فلا يستساغ من شدة نتنه، ويحتاج المسافرون عند مرورهم بالموضع المسمى "الميراد" إلى إرسال من يجلب لهم الماء من مسافة ستة أميال (نحو ٩.٦ كم)، ومثله في المنزل المسمى قبطان، ويشرح التجيبي المعاناة التي واجهها المسافرون وهم

(١) ابن جبير، الرحلة، ص ٤٧ ـ ٤٨، ونقله كل من الحميري، الروض المعطار، ص٤٢٤، والمقريزي، المواعظ والاعتبار، ١/ ٥٥١.

(٢) الحميري، الروض المعطار، ص ٤٢٣.

(٣) الحميري، الروض المعطار، ص ٤٢٣.

(٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، ١/ ١٣٤، التجيبي، مستفاد الرحلة، ص ٢٠٣.

ينتظرون الجمالين الذين ذهبوا لإحضار المياه من موضع بعيد، قال: "فاشتد عطش الناس، وكثر خوفهم، وأشرفوا على الهلاك، واشتد بكاء النساء والصبيان، وعظم الخوف إلى أن فرج الله ذلك"(١).

ورغم أن الطريق الغربي القادم من أسوان إلى عيذاب، والتي تساير النيل وتبتعد عن صحراء عيذاب، تتوفر فيها بعض المواضع المائية، إلا أن الرحالة ناصر خسرو الذي سلكها أشار إلى انعدام الماء في العديد من منازلها، وبعضها يتوفر فيه ماء ولكنه لا يشرب ولا يستساغ، وقد انعدم الماء في طريقهم لمدة سبعة أيام متتالية لم تشرب الجمال فيها، إضافة لقلة الحطب اللازم للوقود وإعداد الطعام، فكانوا يلجأون إلى بعر الإبل ويوقدونه(٢).

عدم توفر سبل الراحة والمرافق والأطعمة الجيدة في داخل مدينة عيذاب وقلة الماء بها: وقد وصفها ناصر خسرو بقلة الماء، وليس فيها بئر ولا عين إلا ما ينزل من ماء المطر، فإذا انحبس المطر جلب أهل عيذاب الماء من خارجها وباعوه، وكان ناصر خسرو ينفق مالاً كثيراً لشراء الماء أثناء إقامته بها والتي امتدت نحو ثلاثة أشهر، واشترى قربة الماء بدرهم ودرهمين(٣). وذكر الحميري أن الماء العذب يجلب إلى عيذاب من مسيرة يوم(٤).

ونوه ابن جبير بأيام إقامته فيها والبالغة ٢٣ يوماً، وكانت إقامة صعبة: "فكانت مدة المقام بعيذاب، محتسبة عند الله عز وجل، لشظف العيش وسوء الحال

---

(١) التجيبي، مستفاد الرحلة، ص ٢٠١.

(٢) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ١٣٣.

(٣) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ١٣٤.

(٤) الحميري، الروض المعطار، ص ٤٢٣.

واختلال الصحة لعدم الأغذية الموافقة، وحسبك من بلد كل شيء فيه مجلوب حتى الماء، والعطش أشهى إلى النفس منه. فأقمنا بين هواء يذيب الأجسام وماء يشغل المعدة عن اشتهاء الطعام، فالحلول بها من أعظم المكاره التي حف بها السبيل إلى البيت العتيق، وأعظم أجور الحجاج على ما يكابدونه ولا سيما في تلك البلدة الملعونة، ومما لهج الناس بذكره قبائحها حتى يزعمون أن سليمان بن داود، على نبينا وعليه السلام، كان اتخذها سجنا للعفارتة، أراح الله الحجاج منها بعمارة السبيل القاصدة الى بيته الحرام، وهي السبيل التي من مصر على عقبة أيلة الى المدينة المقدسة، وهي مسافة قريبة يكون البحر منها يميناً وجبل الطور المعظم يساراً، لكن للإفرنج بمقربة منها حصن مندوب يمنع الناس من سلوكه والله ينصر دينه ويعز كلمته بمنه"[(١)].

ومثله الرحالة التجيبي الذي نفى وجود الماء بها، وإنما يجلب من بئر بعيدة، وهو ماء ثقيل على المعدة ويقطع الشهية للطعام، وإذا توفر ماء المطر فإنه في الغالب مخلوط ببول الغنم إضافة إلى سخونته كأنه من ماء الحمات. وكانت إقامته فيها سيئة لانعدام المرافق وسوء الأغذية بها وسخونة مائها[(٢)].

سكان عيذاب:

أجمعت المصادر الجغرافية العربية على أن سكان عيذاب هم من البجة من قبائل السودان وأممهم[(٣)]، وقد ذكرها الإصطخري وابن حوقل من مدن البجة،

---

(١) ابن جبير، الرحلة، ص ٤٩.

(٢) التجيبي، مستفاد الرحلة، ص ٢٠٦.

(٣) الاصطخري، المسالك والممالك، ص ٣٥، ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٥٠، ٥٤، المسعودي، مروج الذهب، ٢/ ١٢٧، ناصر خسرو، سفرنامه، ص ١٣٤، البكري، المسالك والممالك، ٢/ ٦١٩، التجيبي، مستفاد الرحلة، ص ٢٠٥، ابن بطوطة، تحفة =

لكنهما عادا في موضع آخر وقالا : "ويقال إن أرض عيذاب من البجة وهي من مدن الحبشة"[١]، وهو زعم غير صحيح، لأن الحبشة إقليم مستقل بذاته، والبجة تقع فيما بين بلاد الحبشة والنوبة، وهي مجاورة لهما[٢]، وإن كان في بلاد البجة بعض الأحباش الذين يسكنونها كما ذكر ابن جبير في رحلته[٣]. مثلما جعلها ابن حوقل في موضع ثالث من بلاد النوبة[٤].

وعرفت المصادر بالبجة، وأنهم أمة أقامت في غربي البحر الأحمر (القلزم)، بينه وبين نيل مصر[٥]، وتقع أراضيهم بين الحبشة والنوبة وأرض الصعيد[٦]، وجعل البجة عليهم ملكاً وكانوا يغيرون على بلاد النوبة، ويسبونهم[٧]، وقد كانت النوبة قبل ذلك أشد من البجة، إلى أن قوي الإسلام وظهر، وسكن جماعة من المسلمين معدن الذهب وبلاد العلاة وعلاقي وعيذاب، وسكن في تلك الديار خلق من العرب من ربيعه بن نزار بن معد بن عدنان، فاشتدت شوكتهم، وتزوجوا في البجة، فقويت

=

النظار، ٢/ ١٠٠. وانظر حول مواطن إقامة البجة في جنوب مصر والسودان: عبد الحي، إيمان، التوزيع الجغرافي لقبائل البجة في صحراء مصر، ص ٦٣٥ ـ ٦٣٨.

(١) الاصطخري، المسالك والممالك، ص ٥٤، ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٦٢.

(٢) الاصطخري، المسالك والممالك، ص ١١، ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٥.

(٣) ابن جبير، الرحلة، ص ٤٥.

(٤) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٤٣.

(٥) المسعودي، مروج الذهب، ٢/ ١٢٧.

(٦) الإدريسي، نزهة المشتاق، ١/ ٤٦، ابن الوردي، خريدة العجائب، ص ١٤٠، المقريزي، المواعظ والاعتبار، ١/ ٥٢٧.

(٧) المسعودي، مروج الذهب، ٢/ ١٢٧، المقريزي، المواعظ والاعتبار، ١/ ٥٣٥.

البجة بمن صاهرها من ربيعة، وقويت ربيعة بالبجة على مَن ناوأها وجاورها من قحطان وغيرهم من مضر بن نزار ممن سكن تلك الديار، حتى أن أحد أمراء البجة في زمن المسعودي ـ وتحديداً في سنة ٣٣٢هـ/ ٩٤٣م ـ كان عربياً من قبيلة ربيعة وهو أبو مروان بشر بن إسحاق، وأطلق عليه لقب "صاحب المعدن"، لأن المنطقة مشهورة في أذهان العرب بكثرة المعادن، وكان أبو مروان يركب في ثلاثة آلاف من ربيعة وأحلافها من مضر واليمن وثلاثين ألف حراب على النُّجُب من البجة بالحجف البجاوية، وهم الحدارية، وهم المسلمون ممن بين سائر البجة، وباقي البجة كفار يعبدون صنما لهم[١].

وقدر ناصر خسرو عدد سكان عيذاب في منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي بنحو خمسمائة نسمة[٢].

أما أوصاف أهل عيذاب البجة، فألوانهم سود، وسواد ألوانهم أكثر شدة من سواد الحبشة[٣]، وهم بادية أغتام (أي في كلامهم عجمة) متوغّلون فى الجبال والآجام فى عدد لا يحاط به[٤]، والغالب على أهل عيذاب أنهم عراة الأجساد[٥]، فالمقيمون بها عراة رجالاً ونساءً، لا يسترون عوراتهم إلا بجلود يسيرة، وشعور نسائهم وثديهن

(١) المسعودي، مروج الذهب، ٢/ ١٢٧، المقريزي، المواعظ والاعتبار، ١/ ٥٣٥.

(٢) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ١٣٣.

(٣) الاصطخري، المسالك والممالك، ص ٣٥، ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٥٠، الإدريسي، نزهة المشتاق، ١/ ١٣٤، التجيبي، مستفاد الرحلة، ص ٢٠٥، ابن بطوطة، تحفة النظار، ١/ ٢٣٠، ٢/ ١٠٠، الحميري، الروض المعطار، ص ٤٢٣.

(٤) الاصطخري، المسالك والممالك، ص ٥٤، ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٥٠ ـ ٥١، المقريزي، المواعظ والاعتبار، ١/ ٥٢٧.

(٥) ابن الوردي، خريدة العجائب، ص ١٤٠، المقريزي، المواعظ والاعتبار، ١/ ٥٥٢.

ظاهرة[١]، أما من يرتدي منهم الملابس فهم يلبسون زياً مشابهاً لزي العرب[٢]، وربما كان ذلك نتيجة تأثرهم واختلاطهم بالقبائل العربية التي سكنت في عيذاب وتوطنت في نواحيها، ووصف ابن بطوطة لباسم بأنهم يلتحفون ملاحف صفراء ويشدون على رؤوسهم عصائب يكون عرض العصابة منها أصبعاً[٣]، وهم ينتفون لحاهم وينزعون فلك ثدي الغلمان حتى لا يشبهون النساء[٤].

أما طباع أهل عيذاب فيوصفون بالتوحش، وأنهم قوم حفاة عراة، سود، لا يفقهون ما يقولون، ضعفاء العقول والألباب، وأنه لولا البحر ما سكنت هذه البليدة[٥]، وقال ابن جبير أن طباع أهل عيذاب وحشية: "على أنهم أقرب الى الوحش منهم الى الأنس"[٦]. ولكنهم مع ذلك ليسوا أشراراً، فهم لا يسرقون ولا يغيرون، بل يشتغلون بتربية ماشيتهم، ولكن بعض تجار المسلمين وغيرهم يأخذون أبناء البجة وينقلونهم إلى المدن الإسلامية ويبيعونهم في أسواق الرقيق[٧]. ونوه البكري باستقامة سكان عيذاب ونواحيها وتوفر الأمن على طرقهم، وأنهم يحفظون المسافرين والقوافل[٨]، ووصف ابن بطوطة البجاة الذين ينتشرون في نواحي عيذاب في مروره

(١) التجيبي، مستفاد الرحلة، ص ٢٠٦، ابن جبير، الرحلة، ص ٤٩.

(٢) الاصطخري، المسالك والممالك، ص ٣٥، ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٥٠.

(٣) ابن بطوطة، تحفة النظار، ١/ ٢٣٠، ٢/ ١٠٠.

(٤) اليعقوبي، البلدان، ص ٣٣٦.

(٥) التجيبي، مستفاد الرحلة، ص ٢٠٧.

(٦) ابن جبير، الرحلة، ص ٤٦، ونقله المقريزي، المواعظ والاعتبار، ١/ ٥٥١.

(٧) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ١٣٤.

(٨) البكري، المسالك والممالك، ٢/ ٦٢٠.

منها سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢ م بأنهم "أهل نجدة وشجاعة وسلاحهم الرّماح والسيوف ولهم جمال يسمونها الصّهب يركبونها بالسروج، فاكترينا منهم الجمال وسافرنا معهم في برّيّة كثيرة الغزلان، والبجاة لا يأكلونها فهي تأنس بالآدميّ ولا تنفر منه"[١]. وقد امتاز أهل عيذاب بحسن تعاملهم مع التجار ورفقهم بهم[٢]، كما أن فيهم كرم وسماحة وحسن ضيافة، ويبالغون في إكرام الضيف[٣].

وقال ابن جبير: "وأهلها الساكنون بها من قبيل السودان يعرفون بالبجاة، ولهم سلطان من أنفسهم يسكن معهم في الجبال المتصلة بها. وربما وصل في بعض الأحيان واجتمع بالوالي الذي فيها من الغز (أي من الأتراك والمماليك) إظهاراً للطاعة. وهو يتولى نيابتها مع الوالي في البلد، والفوائد كلها له إلا البعض منها[٤]. وأشار ابن بطوطة إلى سكان عيذاب عند زيارته لها سنة ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م: "وطعامهم ألبان الإبل ويركبون المهاري (أي: الإبل) ويسمونها الصّهب، وبمدينة عيذاب مسجد ينسب للقسطلاني شهير البركة رأيته وتبركت به"[٥].

أما ديانتهم فقد كان بعض البجة يعبدون الأصنام، ودان البعض الآخر بالنصرانية، وعند ظهور الإسلام وبعد أن فتح عبد الله بن سعد بن أبي سرح مدينة أسوان سنة ٣١هـ/ ٦٥١م أسلم جميع من كان بالصعيد وما يحيط بها، ولكن إسلام أكثر البجة كان "إسلام تكليف، وضبطوا بعض شرائط الإسلام وظاهروا بالشهادتين

(١) ابن بطوطة، تحفة النظار، ٢/ ١٠٠.
(٢) ابن الوردي، خريدة العجائب، ص ١٤٠.
(٣) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ١/ ٥٢٨، ٥٣٦.
(٤) ابن جبير، الرحلة، ص ٤٨.
(٥) ابن بطوطة، تحفة النظار، ١/ ٢٣٠.

ودانوا ببعض الفرائض وكان فيهم كرم وسماحة في إطعام الطعام فسامحهم في الأخذ عليهم فجرت أحكامهم على سنن كانت لهم جاهليّة الى بعض أحكام يستعملونها إسلاميّة"[١]، كما أن بعض العرب الذين أقاموا في بلاد البجة، بخاصة من ربيعة قد تزوجوا من البجة، فأسلموا، وبقي الآخرون على عبادتهم للأوثان والأصنام وإن تظاهروا بالإسلام[٢]؛ أي أن إسلامهم لم يكن صادقاً وإنما دفعاً للحرب وخلاصاً من الجزية، ويبدو أن أغلب البجاة لم يدخلوا الاسلام، وبعضهم بقي على نصرانيته، ووصفهم ناصر خسرو الذي زارهم سنة ٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م بأنهم خلق كثيرون يعيشون في الصحراء الشاسعة وأنهم لا دين لهم ولا ملة، لا يؤمنون بنبي ولا إمام، وذلك لبعدهم عن العمران[٣]، ووافقه ابن جبير على ذلك وزاد في وصفهم بأنهم "أضل من الأنعام سبيلاً وأقل عقولاً، لا دين لهم سوى كلمة التوحيد التي ينطقون بها إظهاراً للإسلام، ووراء ذلك من مذاهبهم الفاسدة وسيرهم ما لا يرضى ولا يحل، ورجالهم ونساؤهم يتصرفون عراة إلا خرقاً يسترون بها عوراتهم، وأكثرهم لا يسترون. وبالجملة فهم أمة لا أخلاق لهم، ولا جناح على لاعنهم"[٤]. ويذكر ياقوت في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي أن أهل سواكن الواقعة جنوب عيذاب هم بجاة

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٥٠ ـ ٥١.

(٢) الاصطخري، مسالك الممالك، ص ٣٥، ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٥٠ _ ٥١، المسعودي، مروج الذهب، ٢/ ١٢٧، ابن الوردي، خريدة العجائب، ص ١٤٠، ١٥٠، المقريزي، المواعظ والاعتبار، ١/ ٥٣٠، ٥٣٤.

(٣) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ١٣٤.

(٤) ابن جبير، الرحلة، ص ٤٩.

سود نصارى[١]. وكان أكثر النوبة الذين يجاورون البجة نصارى على مذهب اليعاقبة (اليعقوبية)[٢].

وأهل عيذاب لا يعاقبون على الزنا[٣] كما أنهم لا يورّثون البنات[٤]، ولا يورثون أولادهم الذين من صلبهم، وإنما يورثون ابن البنت وابن الأخت[٥].

وقد أقام بين قبائل البجة بعض العرب، والذين استفادوا من استخراج معادن التبر والذهب والزمرد وبيعها، ومارسوا التجارة فيما بين عيذاب ومصر وبخاصة نقل البضائع القادمة من الهند واليمن، ومن هؤلاء العرب جماعات من ربيعة بن نزار ومضر هناك وصارت لهم ولتميم كالدار التي لم يزالوا بها وابتنوا بها غير منبر كالمحدثة التي بظاهر إسوان وكالعلاقي وهو المنهل يجتاز به الحجيج إلى عيذاب وهم أهل معدن الذهب وإقامتهم عليه[٦]. وقال اليعقوبي: "وأكثر من بالعلاقي قوم من ربيعة من بني حنيفة من أهل اليمامة انتقلوا إليها بالعيالات والذرية"[٧]، وقد تزوّج بعض بني ربيعة من البجة[٨]، وكانت ربيعة تستحوذ على معادن الفضة في بلاد البجة[٩].

---

(١) ياقوت، معجم البلدان، ٣/ ٢٨٦.

(٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، ١/ ٤٧، ابن الوردي، خريدة العجائب، ص ١٤١.

(٣) التجيبي، مستفاد الرحلة، ص ٢٠٦.

(٤) ابن بطوطة، تحفة النظار، ١/ ٢٣٠.

(٥) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ١/ ٥٢٧.

(٦) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣١، ١٥٠.

(٧) اليعقوبي، البلدان، ص ٣٣٤.

(٨) ابن الوردي، خريدة العجائب، ص ١٤٠.

(٩) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٥٠.

وأقام قوم من بني سليم وغيرهم من مضر بموضع يسمى دح على عشر مراحل من وادي العلاقي. كما سكن قوم من مضر بموضع يسمى السنطة يبعد عن العلاقي أيضاً عشر مراحل[١].

ومن العرب الساكنون في عيذاب أولاد كاهل وعرب جهينة[٢]، إضافة إلى عرب من قبائل متفرقة كان من أكثرهم عدداً عرب بني دغيم، وقد شنع الرحالة التجيبي عليهم بقلة الدين وسوء معتقداتهم في النكاح، وعدم إقامتهم لفرض الصلاة، ولكنه وصفهم بالأمانة وعدم خيانة الأموال ليس لأنهم يرغبون في ذلك بل لأن عملهم في مرافقة الحجاج يتطلب منهم أن يلتزموا الأمانة وإلا انصرف الناس عن مرافقتهم، وكانوا يتولون حماية القوافل فيما بين قوص وعيذاب، وقد رافقهم ابن بطوطة في اجتيازه لصحراء عيذاب في سنتي ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م و ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م[٣].

وأشار البكري إلى أن من سكان عيذاب قوم يعرفون ببني يولس ويقال إنهم من البجاة، ويقول آخرون إنهم من العرب وأنهم قوم من فزارة نفاهم الخليفة أبو بكر الصديق، كما يسكن في الطريق الممتدة بين أسوان وعيذاب، أقوام يزعمون أنهم من العرب، وأنهم من كلب بن وبرة، وهم على استقامة وحفظ لمن مرّ بهم. ويسكن في الجبال الممتنعة منها البجاة، منهم مسلمون يتاجرون المارة بهم ويبايعونهم[٤]. ولعل بني يولس المذكورين هم جماعة بني يونس الذي ذكر الحميري وجودهم في مرسى عيذاب ووصفهم بالفجور وأن الفحش فيهم فاش وظاهر لا ينكره منهم منكر، ولا يستأجر

(١) اليعقوبي، البلدان، ص ٣٣٥.

(٢) ابن بطوطة، تحفة النظار، ٢/ ١٠١.

(٣) التجيبي، مستفاد الرحلة، ص ٢٠١ ـ ٢٠٢، ابن بطوطة، تحفة النظار، ١/ ٢٢٩، ٢/ ١٦٠.

(٤) البكري، المسالك والممالك، ٢/ ٦١٩ ـ ٦٢٠.

أحد منهم منزلاً إلا ويشترط على المستأجر دفع نفقة لصاحبة البيت وأجرة الخلوة بها، وأنهم يأخذون من التجار عُشُوراً، ومنها ضريبة تسمى "قبالة الكلب"، وهو كلب كان هناك للأمير في القديم[١].

كما سكن في عيذاب بعض الأحباش، وقد نزل الرحالة ابن جبير في دار لأحد القادة الحبشيين "وكان نزولنا فيها بدار تنسب لمونح أحد قوادها الحبشيين الذين تأثلوا بها الديار والرباع والجلاب"[٢].

والغالب على مساكنهم بيوت من الشعر[٣]، أو خيام مصنوعة من جلود الحيوانات[٤]، كما يسكن بعض أهل عيذاب في بيوت مصنوعة من الأخصاص، أي: القصب أو عسف النخيل، وشاهد ابن جبير تطور البناء فيها حيث تم إدخال الجص واستخدامه في البناء[٥]، ونوه التجيبي إلى أن أغلب بيوتها كانت من الأخصاص، مع وجود بعض المنازل القليلة المجصصة التي ابتناها التجار لإقامتهم فيها عند وصولهم من عدن أو من قوص أو غيرها من البلدان، ويتم استخدامها أيضاً لإقامة الحجاج والمسافرين مقابل الأجر[٦]، ويذكر الحميري الذي نقل كلام ابن جبير أيضاً أن مساكن

(١) الحميري، الروض المعطار، ص ٤٢٣.
(٢) ابن جبير، الرحلة، ص ٤٥.
(٣) الاصطخري، مسالك الممالك، ص ٣٥، ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٥٠.
(٤) اليعقوبي، البلدان، ص ٣٣٦، المقريزي، المواعظ والاعتبار، ١/ ٥٢٧.
(٥) ابن جبير، الرحلة، ص ٤٥، ونقل عنه المقريزي، المواعظ والاعتبار، ١/ ٥٥٠.
(٦) التجيبي، مستفاد الرحلة، ص ٢٠٥.

أهل عيذاب من الحجارة[١]. وشربهم من الآبار[٢]، ولعل المراد أن الماء يجلب لها من آبار مجاورة وبخاصة من وادي العلاقي.

الأوضاع الاقتصادية في عيذاب:

فيما يتعلق بالزراعة فيجمع الجغرافيون العرب على أنه ليس لأهل عيذاب نبات ولا خصب ولا مزروعات إلّا ما ينقل اليهم من مدن الحبشة واليمن ومصر والنوبة، وأن بلادهم بادية جدبة[٣]. وأهلها يتجولون في كل النواحي من أرض البجة يشترون ويبيعون ويجلبون ما هنالك من السمن والعسل واللبن وبالمدينة زوارق يصاد بها السمك الكثير اللذيذ الطعم الشهي المأكل[٤]. ويذكر اليعقوبي أن طعام البجة عموماً هو من الذرة[٥]، ولم يرد في كتب الجغرافيين ما يشير إلى زراعته في أراضيهم، فربما كان مستورداً من مصر أو غيرها. إذ كان عدد الرواحل التي تنقل الأغذية والمأكولات والحبوب تبلغ في بعض الأوقات نحو ستين ألف راحلة[٦].

وقد لاحظ الرحالة العرب خلو عيذاب من المزروعات والنباتات، يقول ابن جبير: "وهي في صحراء لا نبات فيها ولا يؤكل فيها شيء إلا مجلوب ... لكنهم ببلدة لا

---

(١) الحميري، الروض المعطار، ص ٤٢٣.

(٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، ١/ ١٣٤، ابن الوردي، خريدة العجائب، ص ١٤٠، الحميري، الروض المعطار، ص ٤٢٣.

(٣) الاصطخري، المسالك والممالك، ص ٣٥، ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٥٠، ١٦٢، الإدريسي، نزهة المشتاق، ١/ ٤٦، المقريزي، المواعظ والاعتبار، ١/ ٥٥١.

(٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، ١/ ١٣٥، ابن الوردي، خريدة العجائب، ص ١٤١، الحميري، الروض المعطار، ص ٤٢٣ ـ ٤٢٤.

(٥) اليعقوبي، البلدان، ص ٣٣٦.

(٦) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ١/ ٥٣٤.

رطب فيها ولا يابس قد أَلِفُوا بها عيش البهائم ؛ فسبحان محبب الأوطان الى أهلها"[١]، مثلما نفى التجيبي وجود أي نبات في مدينة عيذاب ولا في المناطق المحيطة بها باستثناء منطقة تسمى "الجنيب"، التي ذكرها ابن جبير باسم "الخبيب"[٢]، ولكنه أشار لبعض النباتات المستخدمة في الطب والتداوي التي توجد بصحراء عيذاب، ومنها نبات السنا المستخدم في علاج وجع المفاصل وعرق النسا ويعالج أمراضاً عديدة[٣]. بينما يشير ابن بطوطة إلى توفر الثروة السمكية والحيوانية وكثرة الحوت (أي: السمك) بها، وتوفر اللبن، أما الثمار والزرع والتمر فينقل إليها من صعيد مصر[٤]. وتعجب من كثرة الأسماك بساحلها وكيفية صيده: "ورأيت بذلك المرسى عجباً وهو خور مثل الوادي يخرج من البحر، فكان الناس يأخذون الثوب ويمسكون بأطرافه ويخرجون به وقد امتلأ سمكاً ؛ كلّ سمكة منها قدر الذراع ويعرفونه بالبوريّ، فطبخ منه الناس كثيرا واشتووا"[٥]. ويكثر عندهم الإبل والمواشي كالبقر والغنم والضأن[٦]، ويستخدمون الإبل في ركوبهم وسفرهم وحروبهم[٧]، مثلما تكثر في عيذاب ونواحيها الفيلة والزرافات[٨].

---

(١) ابن جبير، الرحلة، ص ٤٥، ٤٦.

(٢) التجيبي، مستفاد الرحلة، ص ٢٠٦.

(٣) التجيبي، مستفاد الرحلة، ص ٢٠٥.

(٤) ابن بطوطة، تحفة النظار، ١/ ٢٣٠.

(٥) ابن بطوطة، تحفة النظار، ٢/ ١٠٠.

(٦) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ١/ ٥٢٨.

(٧) اليعقوبي، البلدان، ص ٣٣٦.

(٨) البكري، المسالك والممالك، ٢/ ٦٢٠.

وإذا كانت الموارد الزراعية ـ خاصة المزروعات ـ قليلة بالنسبة لأهل عيذاب فقد تعوَّض ذلك بتوافر ثروة معدنية في أراضيهم، وقد أشار الجغرافيون العرب لمعدن الذهب أو التبر ومعدن الزمرد الذي يكثر وجودها في نواحي عيذاب، وهو السبب الذي جعل بعض العرب يقيمون في هذه المناطق الصحراوية الصعبة، ولكثرة توفر المعادن الثمينة بهذه المنطقة أطلق عليها اليعقوبي اسم "معادن التبر"، وذكر النواحي والمواضع التي يكثر استخراجه منها، وذكر أن لكل قوم من التجار وغيرهم ممن يتكسبون بهذا المعدن عبيد سودان يعملون في الحفر فيخرجونه كالزرنيخ الأصفر ثم يتم سبكه[١]. والمنطقة التي يكثر فيها هي عبارة عن أرض مبسوطة لا جبل فيها وانّما هي رمال ورضراض[٢]، والرضراض هي الحصى الصغيرة، وأشار ابن حوقل إلى أن المعدن الذي يكثر في هذه المنطقة هو الزبرجد، وحدد المنطقة التي يكثر فيها بأنها البرية المنقطعة عن العمارة في جنوب صعيد مصر قرب أسوان ويمتد وجوده من حدّ جزائر بنى حدان الى نواحي عيذاب، وليس بجميع الأرض معدن للزمرّد غيره[٣]، وأموال هذا المعدن يرتفع الى أرض مصر وهو معدن ذهب لا فضّة فيه[٤]، بينما أشار البكري إلى وجود الفضة أيضاً بهذه المنطقة إضافة إلى معدن الذهب[٥].

---

(١) اليعقوبي، البلدان، ص ٣٣٤.

(٢) الاصطخري، مسالك الممالك، ص ٥٤، ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٦٢، المسعودي، مروج الذهب، ٢/ ١٢٧، الإدريسي، نزهة المشتاق، ١/ ٤٦، ابن الوردي، خريدة العجائب، ص ١٥٠.

(٣) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٥٠.

(٤) الاصطخري، مسالك الممالك، ص ٣٥، ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٥٠.

(٥) البكري، المسالك والممالك، ٢/ ٦٢٠، ابن الوردي، خريدة العجائب، ص ١٤٠.

وعندما انتشر بين المسلمين خبر التبر والزمرد الموجود في مناطق البجة سارع الكثير منهم للقدوم إليهم والعمل على استخراجه، فقدمت جماعات من قبائل ربيعة وجهينة وغيرهم من القبائل العربية، وتزوج بعض العرب من البجة، فكثرت تجارة المعادن والعمل على استخراجها[١].

ويذكر الإدريسي جانباً من طريقة الذين يبحثون عن المعادن الثمينة في استخراجها، "فإذا كان أول ليالي الشهر العربي وآخره خاض الطلاب في تلك الرمال بالليل فينظرون فيها كل واحد منهم ينظر فيما يليه من الأرض فإذا أبصر التبر يضيء بالليل علم على موضعه علامة يعرفها وبات هنالك فاذا أصبح عمد كل واحد منهم إلى علامته في كوم الرمل الذي علم عليه ثم يأخذه ويحمله معه على نجيبه فيمضي به إلى آبار هنالك ثم يقبل على غسله بالماء في جفنة عود فيستخرج التبر منه ثم يؤلفه بالزئبق ويسبكه بعد ذلك فما اجتمع لهم منه تبايعوه بينهم واشتراه بعضهم من بعض ثم يحمله التجار إلى سائر الأقطار وهذا شغلهم دأبا لا يفترون عنه ومن ذلك معايشهم ومبادئ مكاسبهم وعليه يعولون"[٢].

وقد شاهد الرحالة التجيبي أثناء عبوره صحراء عيذاب جبلاً به نوع نادر من الزمرد يسمى الذبابي، ويذكر أنه نادر الوجود، وقد وضع عليه حرس حتى لا يؤخذ منه شيء. إضافة إلى حجارة في جبل آخر يسمى جبل البازهر، تستخدم حجارته في العلاج لإيقاف نزيف الدم[٣].

---

(١) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ١/ ٥٣٤.

(٢) الادريسي، نزهة المشتاق، ١/ ٤٦، ونقله ابن الوردي عنه، انظر: خريدة العجائب، ص ١٤٠.

(٣) التجيبي، مستفاد الرحلة، ص ٢٠٥.

كما تكثر في بلادهم معادن النحاس والحديد والرصاص وحجر المغناطيس وغيرها[١].

وإضافة لاستفادة أهل عيذاب من التجارة ومن قوافل الحجيج المارين بهم فقد كان بعضهم يعمل في استخراج اللؤلؤ من الجزر القريبة منهم، إذ احتوى البحر الأحمر من جهة عيذاب على مغاص اللؤلؤ يستخرج منه جوهر نفيس، وله قيمة عالية، فيذهب الغواصون للبحث عنه في شهر يونيو والشهر الذي يليه ويرتحلون الى تلك الجزر القريبة في الزوارق ويقيمون فيها الأيام فيعودون بما تمكنوا من جمعه، والمغاص منها قريب القعر ليس ببعيد. ويستخرجونه في أصداف لها أزواج كأنها نوع من الحيتان أشبه شيء بالسلحفاة. فاذا شقت ظهرت الشقتان من داخلها كأنهما محارتا فضة، ثم يشقون عليها فيجدون فيها الحبة من الجوهر قد غطى عليها لحم الصدف. فيجتمع لهم من ذلك بحسب الحظوظ والأرزاق[٢].

خاتمة :

حظيت مدينة عيذاب وميناؤها وصحرائها باهتمامات الجغرافيين العرب، وقدموا إفادات مهمة عن طبيعتها ووصفها وذكر الطرق البرية والبحرية التي تربطها بما يجاورها من الأمم والبلدان، مثلما تضمنت مادة الرحالة العرب معلومات تاريخية وجغرافية حولها، وعن طباع أهلها وأوصافهم ودياناتهم ومستوى التدين لديهم، وأبانت عن الطرق المسلوكة وما فيها من صعوبات وعوائق، كما قدمت بعض

(١) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ١/ ٥٢٨.

(٢) ابن جبير، الرحلة، ص ٤٦، المقريزي، المواعظ والاعتبار، ١/ ٥٥١.

الإشارات حول تبعية عيذاب الإدارية، وهي معلومات قيمة مبتناة على المشاهدة المباشرة والملاحظة الشخصية لكل منهم وبحسب الزمن الذي زارها فيه.

وقد بدا جلياً أن الاهتمام بها كان نابعاً من موقع عيذاب الجغرافي وباعتبارها من المحطات التجارية البرية والبحرية فيما بين اليمن والهند ومصر والحجاز، إضافة إلى توفر الثروات المعدنية من الذهب ونفائس الأحجار؛ التي جعلت بعض القبائل العربية تفكر بسكنى عيذاب وتوطنها والعمل في استخراج الجواهر والمتاجرة بها.

وكشفت الدراسة عن الحضور العربي في المنطقة بوجود جماعات من القبائل العربية التي سكنتها، خاصة من ربيعة، والتي كانت الزعامة فيها في الثلث الأول من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي لأحد رجال القبيلة وهو أبو مروان بشر بن إسحاق.

وقد رصدت الدراسة جانباً من العوائق الطبيعية والبشرية التي حدت من كون عيذاب مقصداً لحجاج المغرب ومصر وبقية المسافرين رغم ما تختصره طريقها من زمن ووقت، وكان اللجوء إلى استخدام طريق عيذاب البحري فيما بينها وبين الحجاز قد تم اضطراراً في حقبة سيطرة الصليبيين على الطريق التي توصل مصر والشام والمغرب بالحجاز.

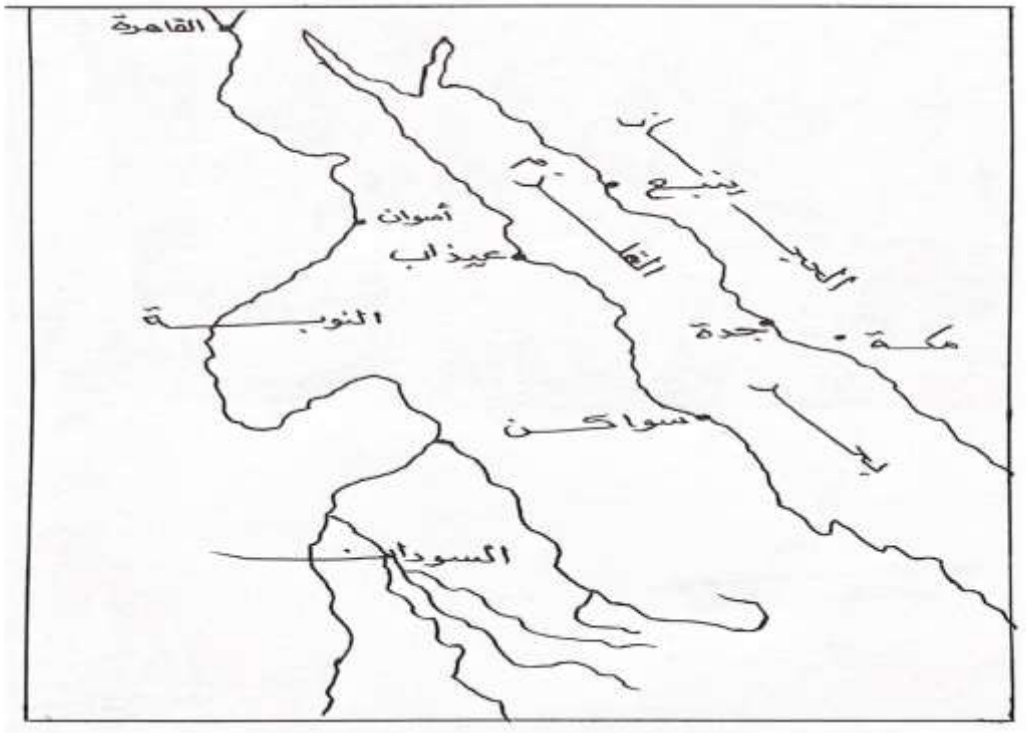

خارطة مبسطة لموقع مدينة عيذاب (من إعداد الباحث)

ملحق رقم (١)

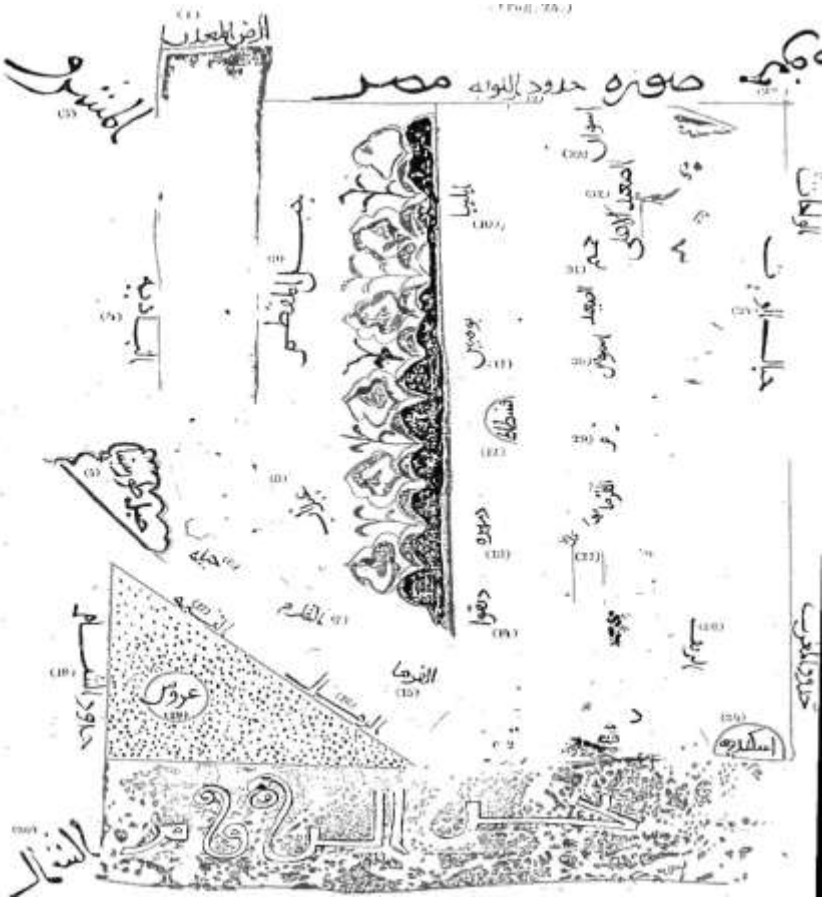

خارطة الإصطخري، من كتاب الأقاليم، الصفحة غير مرقمة موضعها بين الصفحتين ٢٤ و٤٥.

ملحق (٢)

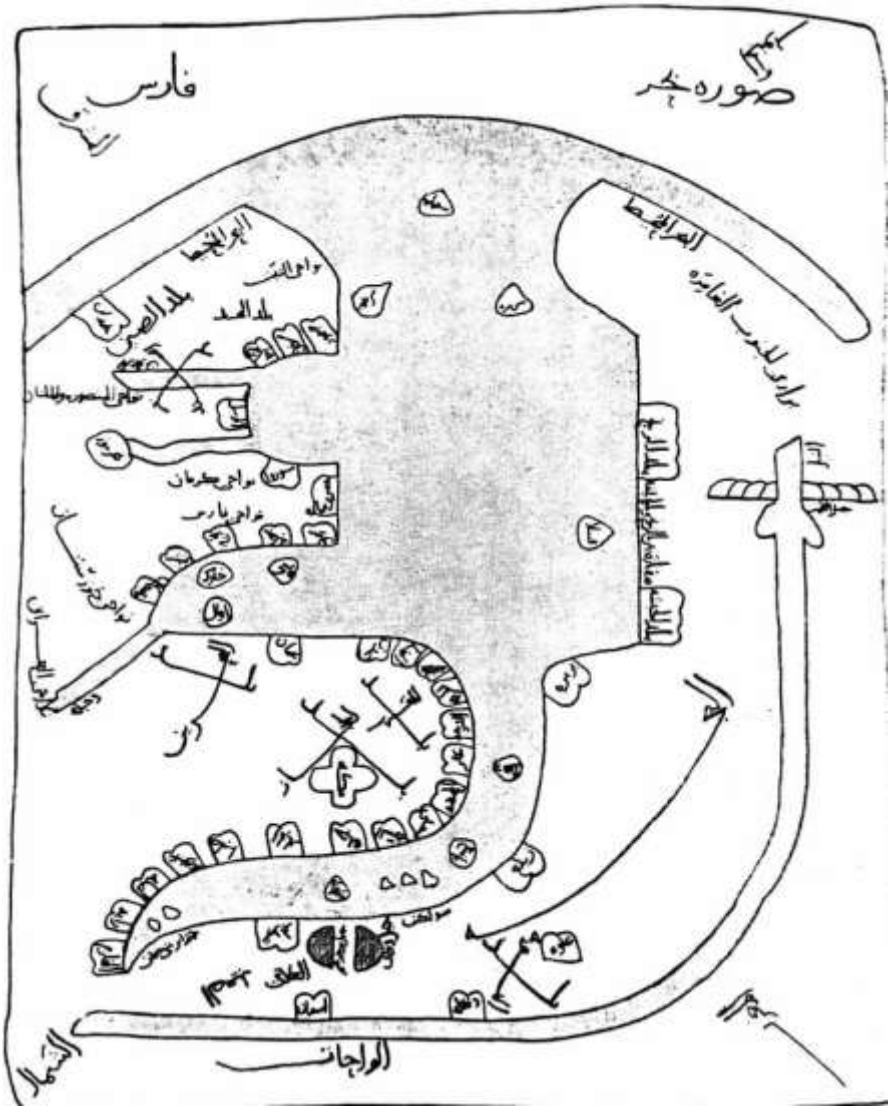

خارطة ابن حوقل، صورة الأرض ص ٤٥.

المصادر

[١] ابن الورديّ، سراج الدِّين عمر بن مظفَّر (ت ٨٦١ هـ). خريدة العجائب وفريدة الغرائب. تحقيق: أنور محمود زناتي. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٨م.

[٢] ابن بطوطة، محمد بن عبد الله اللواتيّ (ت ٧٧٩هـ). رحلة ابن بطوطة "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار". تحقيق: عبد الهادي التازي. الرباط: الأكاديمية المغربية، ١٩٩٧م.

[٣] ابن جُبَيْر، محمّد بن أحمد الأندلسي الكنانيّ (ت ٦١٤هـ). رحلة ابن جبير المسمّاة: "تذكرة بالإخبار عن اتّفاقات الأسفار". بيروت: دار صادر، ١٩٩٥م.

[٤] ابن حَوْقل، مُحمّد بن حوقل البغدادي (ت ٣٦٧هـ). صورة الأرض. بيروت: دار صادر، ١٩٣٨- ١٩٣٩م.

[٥] ابن خرداذبه، عبيد الله بن عبد الله (ت نحو ٢٨٠هـ). المسالك والممالك. ليدن: مطبعة بريل، ١٨٨٩م.

[٦] الإدريسيّ، محمد بن محمد (ت ٥٦٠ هـ). نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. بيروت: عالم الكتب، ١٩٨٩م.

[٧] الإصطخريّ، إبراهيم بن مُحمّد، أبو اسحاق (٣٤٦هـ). مسالك الممالك. ليدن: مطبعة بريل، ١٩٣٧م.

[٨] البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي (ت ٤٨٧هـ). المسالك والممالك. تحقيق: أدريان فان ليوفن، أندري فيري. تونس: الدار العربية للكتاب، بيت الحكمة، ١٩٩٢م.

[٩] التجيبيّ، القاسم بن يوسف السبتيّ (ت ٧٣٠هـ). مستفاد الرحلة والاغتراب. تحقيق: عبد الحفيظ منصور. ليبيا ـ تونس: الدار العربية للكتاب، ١٩٧٥م.

[١٠] الحميري، محمد بن عبد المنعم الصنهاجي (من أهل القرن الثامن الهجري). الروض المعطار في خبر الأقطار. تحقيق: إحسان عباس. ط٢. بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٨٤م.

[١١] مجهول (من أهل القرن السادس الهجريّ). الاستبصار في عجائب الأمصار. تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد. الدار البيضاء: الدار المغربية للنشر، ١٩٨٥م.

[١٢] المسعودي، علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ). مروج الذهب ومعادن الجوهر. تحقيق: بربيه دي مينار وبافيه دي كرتاي، مراجعة: شارل بلا. بيروت: الجامعة اللبنانية، ١٩٦٥ ـ ١٩٧٩م.

[١٣] المقدسيّ البشاريّ، محمد بن أحمد (ت نحو ٣٨٠ هـ). أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. ليدن: مطبعة بريل، ١٩٠٩م.

[١٤] المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر، تقي الدين، أبو العباس (ت ٨٤٥هـ). المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار. تحقيق: أيمن فؤاد سيد. لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ٢٠٠٢م.

[١٥] المهلبيّ، الحسن بن أحمد (ت بعد ٣٨٦هـ). الكتاب العَزيزيّ أو: "المسالك والممالك". جمعه وعلَّق عليه: تيسير خلف. دمشق: دار التكوين للطباعة والنشر، ٢٠٠٦م.

[١٦] ناصر خسرو (كان حياً ٤٥٥هـ). سفر نامه. ترجمة: يحيى الخشاب. ط٢. القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٤٥م.

[١٧] ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ). معجم البلدان. بيروت: دار صادر، (د.ت).

[١٨] اليعقوبيّ، أحمد بن إسحاق بن واضح (ت بعد ٢٩٢ هـ). كتاب البلدان. ليدن: مطبعة بريل، ١٨٨٩م.

المراجع

[١] إبراهيم، بشير. "عيذاب حياتها الدينية والأدبية". مجلة الدراسات السودانية، جامعة الخرطوم، مج ٥، ع ٢، ١٩٧٩، ص ٥٤ ـ ٨٤.

[٢] الدجاني، إلهام. "طريق الحج المصري في العصور الوسطى الإسلامية". مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مج ٧٠، ع٤، أكتوبر ٢٠١٠، ص ٥٣ ـ ٨٨.

[٣] زيادة، عبد الغني. "ميناء عيذاب في العصر الوسيط ٤٦٠ ـ ٦٦٦هـ/ ١٠٥٧ ـ ١٢٦٧م". مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مج ٧٤، ع ٧، ٢٠١٤م، ص ١٧١ ـ ٢٥١.

[٤] زين، نعيمة. "أهمية الموانئ السودانية للتجارة الدولية عبر البحر الأحمر خلال العصر الإسلامي". مجلة جامعة لملك عبد العزيز للعلوم التربوية، مج ١٣، ٢٠٠٠م، ص ٣٥١ ـ ٣٧٦.

[٥] عبد الحي، إيمان. "التوزيع الجغرافي لقبائل البجة في صحراء مصر الشرقية في العصر الوسيط". مجلة البحث العلمي في الآداب، جامعة عين شمس، ع١٨، ج٢، ٢٠١٧، ص ٦٣٣ ـ ٦٥٢.

[٦] عبد العزيز، نهى. "الأهمية التاريخية لميناء عيذاب الأثري". مجلة دراسات إفريقية، جامعة إفريقيا العالمية، ع٣٦، ٢٠٠٦م، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٦.

[٧] عوض، محمد مؤنس. "الرها، عيذاب، تونس "أقصى حدود التوسعات الصليبية خلال المرحلة ما بين عامي ١٠٩٧ ـ ١٢٩١م". مجلة بحوث الشرق الأوسط. جامعة عين شمس، ع٣٠، مارس ٢٠١٢م، ص ٢١ ـ ٤٨.

[٨] محمد، عوض، وأحمد مركز. "تاريخ موانئ البجة في عصر الدولة الإسلامية (١١هـ/ ٦٣٢م ـ ٦٥٦هـ/ ١٢٥٦م)". مجلة جامعة البحر الأحمر للعلوم الإنسانية. ع١، ٢٠١٦، ص ١٦١ ـ ١٩٢.

[٩] موسى، أحمد. "النشاط التجاري في البحر الأحمر في عصر المماليك الجراكسة ٧٨٤ ـ ٩٢٢هـ/ ١٣٨٢ ـ ١٥١٦م". كلية الآداب بقنا، ٢٠٠٦م.

[١٠] ميرغني، جعفر. "عيذاب في المصادر التاريخية، مجلة محاور". جامعة أم درمان الأهلية، ع٢، فبراير ١٩٩٩م، ص ٤١ ـ ٤٩.

[١١] هذيل، طه حسين. "دور الموانئ الإفريقية في تسهيل حركة الحج إلى الحجاز في القرنين السادس والسابع الهجريين". مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية، جامعة نواكشط، ع ٢٥، ٢٠١٨م، ص ٥ ـ ٢٦.

[١٢] Gibb. H. A. R, "Aydhab", The Encyclopedia of Islam, (New Edition), Leiden, Brill, ٢٠٠٢, Vol. I, p ٧٨٢.

Aydhab City As Described by the Arab and Muslim Geographers From the Third Century AH Until the Eight Century AH

Dr. Sultanah Mallah Alruwaili

History and Civilization. Shari'ah. Jouf University

Abstract:

Aydhab and its presence as mentioned in the books of Arab and Muslim geographers and travelers, from the earliest geographical texts in the third century AH / ninth century AD until the eighth century AH / fourteenth century AD, and to introduce its famous desert, "Aydhab Desert."

The study also introduced the residents of Aydhab, their origins, their character, their religion, and the Arab presence in their area, and revealed their most important living and financial resources, especially the mineral resources.

The study enumerated the land roads between it and Upper Egypt, and the difficulties that travelers faced there, and what were the reasons that reduced it from being the road for pilgrims from Africa across the Red Sea to the port of Jeddah, which ought to shorten a long distance?

Key words: Aydhab, Albajjah, Red Sea, Arab Geographers.